

مع النبي

أحاط بالنبيّ عليه السلام نخبة من كبار الرجال مختلفون في الأعمار والأقدار، مختلفون في البيئات والأحساب، مختلفون في الأمزجة والأخلاق، مختلفون في ملكات العقول وضروب الكفايات^(١)، مختلفون في فهم الدين وبواعث الإسلام، فكان خلافهم هذا آيةً من أصدق الآيات على رحابة الأفق وتعدد الجوانب في نفس ذلك الإنسان العظيم. وكان علمنا بكل رجل من أولئك الرجال مزيداً من العلم بعظمة هادهم وسيدهم، وموجه كلّ منهم في وجهته التي هو أصلح لها وأقدر عليها، وهم يلتقون أول الأمر وآخره في ذلك الينبوع الفياض من تلك الفطرة العلوية التي فطرها الله هداية الأمم وقيادة الرجال. بل لقيادة القواد الذين يروضون الأمم والرجال.

وما من عظيم من هؤلاء العظماء إلا كان تقدير النبيّ إياه بقدره الصحيح آيةً على عرفانه الشامل بخصائص النفوس وسبره العميق لأغوار الطبائع والأفكار، ولكنّ تقديره لخالد بن الوليد على التخصيص كان آيةً الآيات في هذا الباب؛ لأنّه عليه السلام لم يكبره إكبار السياسيّ الذي يستجمع القوة حواليه وينزل كلّ زعيم منزلة قومه من الوفرة والعزة والجاه والعتاد، وإنما أكبره لأنّه عرف أقصى مستطاعه قبل أن يظهر من مستطاعه كثير، وسماه "سيف الله" وبينه وبين الوقائع التي استحقّ بها هذا اللقب الجليل بضع سنوات. بل سماه سيف الله

(١) الكفاءة والقدرة على حمل الأعباء.

وهو قافل من معركةٍ يتلقى المسلمون من عادوا منها بالنكير والتشهير، ويحُثُونَ في وجهوهم التراب ويصيحون بهم أينما وجدوهم: يا فَرَّار ! يا فَرَّار !... فررتم من سبيل الله!!

لم يكبر النبيُّ خالدًا كما أكبر أبا سفيان تألُّفًا له ورعيًّا لمكانه في قومه ولكنه أكبره للصفة التي سيوصف بها في تاريخ الإسلام بعد اهتدائه إليه ببضع سنوات.

أكبره لأنه "سيف من سيوف الله" والناس لا يرون إلا الهزيمة والارتداد، ولم يكن النبي موليه القيادة في المعركة التي ارتدَّ منها بجيش المسلمين، فيقول قائل إنَّه ينصر قائدًا هو المسئول عن اختياره، وهو من ثمَّ المسئول عن ارتداده أو فراره، ولكنه ولى آخرين وترك اختياره بعدهم لمشيئة إخوانه في الجيش، فاختاروه بعد ذلك مجتمعين.

كثير من رؤساء الأمم يعرفون موضع الإكليل من رؤوس القادة وهم منتصرون ظافرون، ولكنه موضع يخفى جدَّ الخفاء على أنظار هؤلاء الكثيرين إذا لم يدبَّهم عليه ضياء النصر والظفر ويبقى للعين المهمة وحدها أن تراه في ظلام المحنة والبلاء.

وقد صحب خالد النبي ثلاث سنوات، وعهد إليه النبيُّ في كثير من الأعمال الصغيرة وأشركه في بعض الأعمال الكبيرة: ومنها غزوة مؤتة وغزوة حنين وسرية بني جذيمة، فما من هذه الأعمال الكبيرة عمل واحدٌ لم يتسع فيه المقال للشانين والحاسد ولم ينظر إليه الناظر من وجهين متعادلين تارة إلى جانب العذر وتارة إلى جانب الملام، ولو أنه رضي الله عنه قضى نحبه في السنة العاشرة للهجرة أو بعد ذلك بقليل

لعجب المؤرخون كيف سمى "سيف الله" وفيه استحقّ ذلك اللقب الذي لا يعلوه لقب في الإسلام، ولكن النبيّ وحده الذي عرف قبل الحادية عشر للهجرة أنّه حقيق بذلك اللقب على أوفى مداه، وسماه به قبل أن يهزم المرتدّين وقبل أن يهزمَ الفرس والروم وقبل أن يصون الإسلام جزيرة العرب ويضمُّ إليها العراق والشام وهى الأعمال الجسام التي من أجلها يدعى اليوم سيف الإسلام.

وإنما هو البصر العلويّ الذي يلمح هذه القدرة في معدنها حيث ينظر الناس فيرون خالدًا مرتدًا من غزوة مؤتة أو مأخوذًا مع الخيل وهى تولى في أول المعركة من ميدان حنين، أو صانعًا في سرية بني جذيمة ما يبرأ منه النبيّ عليه السلام.

ولهذا ينبغي أن توزن هذه الأعمال بميزانها الصحيح لإقامة خالد نفسه في مقامه الصحيح، فهى ولا ريب من المعدن الذي نجمت منه حروب الردة وفتوح العراق والشام.